

1437 هـ - 2016 م

تفريغ سلسلة

بين حاكم وعالم

للشيخ

أبي مصعب السوري

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

سلسلة

بين حاكم وعالم

للشيخ/ أبي مصعب السوري (عمر عبد الحكيم)

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

مقدمة التفريغ:

يقول الشيخ أبو مصعب السوري في دورته المرئية (دعوة المقاومة العالمية؛ الفكر والمنهج والطريقة) أنه أعد برنامجًا تحت اسم (بين حاكم وعالم) من ٦٥ حلقة، فقال الشيخ -فكّ الله أسره-: [**وهناك قصص من أنفس القصص، ولا نريد أن نطيل فيها فهي تحتاج إلى ساعات، وهذه القصص جمعتها مرة في برنامج اسمه (بين حاكم بين عالم) حوالي ٦٥ قصة.**]

والذي نقول به أن هذا البرنامج الذي أعده الشيخ أبو مصعب السوري هو نفس البرنامج الذي نشرته المعارضة السعودية في قناة حزب الإصلاح بقيادة الدكتور سعد الفقيه فيما ترجح لدينا من قرائن ودلال وتأكيدات من بعض الأطراف.

وقد ذكر الشيخ أنه أعد ٦٥ حلقة إلا أن ما وجدناه في شبكة الإنترنت هو ٣١ حلقة، فقد يكون وهمًا من الشيخ أو أنَّ باقي الحلقات لم تنزل في الإنترنت، وقد وجدنا أن أحدهم -صاحب معرّف (يا له من زمن)- قد قام بتفريغ ٢٠ حلقة، فقمنا بجمعها وتفريغ باقي الحلقات ومراجعتها.

١- بين أبي جعفر المنصور وابن أبي ذؤيب -رحمهما الله تعالى-.

عن الشافعي -رضي الله عنه- قال: "حدّثني عمي محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، قال: فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئًا من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب، قال: فسأله فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال: أشهد أنهم أهل تحطّم في أعراض الناس كثيرو الأذى لهم.

فقال أبو جعفر: قد سمعتم. فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد.

فقال: يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد؟ فقال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتّبع هواه، فقال: قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح، فقال: يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك، فقال: ما تقول فيّ؟ قال: تعفيني يا أمير المؤمنين، قال: أسألك بالله إلا أخبرتني.

قال: تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك!، قال: والله لتخبرني، قال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاشٍ.

قال: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه، ثم قال له: أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك، قال: فقال ابن أبي ذؤيب: يا أمير المؤمنين قد ولّى أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم. قال: فخلّى أبو جعفر قفاه وخلّى سبيله وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك المهدي.

قال: فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له: يا أبا الحرث لقد سرَّني ما خاطبت به هذا الجبار، ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي، فقال: يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كلنا كان في المهد".

٢- بين أبي جعفر المنصور وابن طاووس -رحمهما الله تعالى-.

قال مالك بن أنس: "بعث أبو جعفر المنصور إليَّ وإلى ابن طاووس، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرش قد نضدت، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق. فأموأ إلينا: أن اجلسا. فجلسنا.

فأطرق عنا طويلًا، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس، فقال له: حدّثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله). فأمسك ساعة. قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه!. ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عِظني يا ابن طاووس. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}.

قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأ ثيابي من دمه. فأمسك ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه. ثم قال: يا ابن طاووس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. قال ابن طاووس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم.

قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله".

٣- بين أبي جعفر المنصور وأبي حنيفة -رحمهما الله تعالى-.

كان الخليفة المنصور يرفع من شأن أبي حنيفة ويكرمه ويرسل له العطايا والأموال، ولكنَّ أبا حنيفة كان لا يقبل عطاءً. ولقد عاتبه المنصور على ذلك قائلًا: لم لا تقبل صِلتي؟. فقال أبو حنيفة: "ما وصلني أمير المؤمنين من ماله بشيء فرددته، ولو وصلني بذلك لقبِلتُه، إنما وصلني من بيت مال المسلمين ولا حقَّ لي به".

واستدعى المنصور أبا حنيفة وعرض عليه تولّي القضاء فامتنع وأعرض قائلًا: "إن هذا دعاني للقضاء فأعلمته أني لا أصلح، وأني لأعلم أن البينة على المدّعي واليمين على من أنكر، ولكنه لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك وعلى ولدك وقوادك، وليست تلك النفس لي. إنك لتدعوني فما ترجع نفسي حتى أفارقك".

وقال أبو حنيفة: "والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب؟! فلا أصلح لذلك"، قال المنصور: كذبت بل تصلح، فقال: "كيف يحلّ أن تولّي من يكذب؟!".

٤- بين أبي جعفر المنصور والأوزاعي -رحمهما الله تعالى-.

روى الحافظ أبو نُعيم في (حلية الأولياء) أن أبا جعفر المنصور قد بعث إلى الإمام الجليل الأوزاعي، فلما دخل عليه قال المنصور: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال: وما الذي يريده أمير المؤمنين؟ قال المنصور: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم، فقال الإمام: انظر لا تجهل شيئًا مما أقول.

قال المنصور: كيف أجهله وأنا أسألك عنه وقد وجهت فيه إليك؟ قال: أن تسمعه ولا تعمل به. فصاح الربيع به، وأخذ السيف بيده، فانتهره المنصور وقال للربيع: هذا مجلس مثوبة لا عقوبة، فحينئذٍ قال الإمام الأوزاعي: يا أمير المؤمنين، حدَّثني مكحول عن عطية بن بسر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أيما عبد جاءته من الله موعظة في دينه فإنها نعمة من الله سِيقت إليه، فإن قَبِلها بشكر وإلا كانت حجَّة من الله عليه ليزداد بها إثمًا ويزداد الله عليه بها سخطًا) [رواه البيهقي].

يا أمير المؤمنين، حدَّثني مكحول عن عطية بن بسر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أيما والٍ بات غاشًا لرعيته حرَّم الله عليه الجنة) [رواه البيهقي].

يا أمير المؤمنين، إن الذي يُلين قلوب أُمَّتكم لكم حين وليتم أمورها قرابتكم من نبيكم -صلى الله عليه وسلم-، وقد كان بهم رؤوفًا رحيمًا مواسيًا نفسه بهم في ذات يده، وإنك عند الناس لحقيق أن تقوم فيهم بالحق، وأن تكون بالقسط فيهم قائمًا ولعوراتهم ساترًا. لم تغلق عليك دونهم الأبواب، ولم تُقِم عليك دونهم الحُجَّاب، تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما أصابهم من سوء.

٥- بين أبي جعفر المنصور وعمر بن عبيد -رحمهما الله تعالى-.

دخل عمرو بن عبيد على المنصور، ودخل رجل حسن الأدب، كأنما لم يزل مع الملوك، فأجلسه المنصور إلى جانبه فأبى إلا أن يجلس بين يديه، ثم قال له: إن الله واقِفُك وسائِلك عن مثاقيل الذَّر من الخير والشر، وإن أمَّة محمَّد

خُصماؤك يوم القيامة. وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يُعدل عليك، فإن الله لا يرضى منك إلا بالعدل على رعيتك. يا أمير المؤمنين، إن على بابك نيرانًا تأجّج من الجور!.

فبكى المنصور ونشج، فقال سليمان بن مجالد: يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين، فقال: ويحك إن أمير المؤمنين ميت ومخلٍّ ما في يديه من هذه الدنيا ومرتهن بعمله، وأنت غدًا جيفة بالعراء لا تُغني عنه شيئًا، ولقرب هذا الجدار منه خير له من قربك.

يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء اتَّخذوك سلمًا إلى دَرْك إرادتهم وصفاء دنياهم لهم، فكلُّهم يوقد عليك. قال: فكيف أصنع يا أبا عثمان؟ ادعُ لي أصحابك أستعملهم. قال: ادعهم أنت واطرد هؤلاء الشياطين عن بابك، فإن أهل الدين لا يأتون بابك وهؤلاء محيطون بك؛ لأنهم إن باينوهم ولم يعملوا بأهوائهم أرشوك بهم وحملوك عليهم، والله لئن رأوك عمَّالك لا تقبل منهم إلا العدل ليتقربنّ إليك به من لا نية له فيه.

٦- (الظاهر أنها مفقودة من المصدر).

٧- بين أبي جعفر المنصور وجعفر الصادق.

روي في كتب الأثر أنَّ أبا جعفر المنصور تماها إلى سمعه من بعض الوشاة أن الإمام جعفر الصادق يجمع من أموال الزكاة ما يمدّ به محمّد بن الحسن الذي كان قد خرج على المنصور، فأمر بإحضاره ليحقّق معه في هذه التّهم أمام شهود يزعمون أنه فعل ذلك، وأنه يرسل مولاه المعلى بن حبيس للقيام بهذه المهمة، فدار بينهما الحوار التالي..

قال المنصور: يا جعفر ما هذه الأموال التي يجبيها المعلى بن حبيس؟

فردَّ عليه الصادق: معاذ الله من ذلك أيا أمير المؤمنين.

فعرض عليه المنصور أن يقسم على ذلك بالطلاق والإثار، فما كان من الإمام جعفر الصادق إلا أن قال له: نعم يا أمير المؤمنين أحلف بالله أنه ما كان شيء من ذلك.

فقال أبو جعفر: فلتحلف بالطلاق والعتاق، فاستغرب الإمام قائلًا: أما ترضى بيميني بالله الذي لا إله إلا هو؟

فقال المنصور: دع عنك هذا ولا تتفقّه عليّ، فإني أجمع بينك الآن وبين الرجل الذي يشهد عليك بهذا، ثم أدخل الرجل الشاهد وسأله المنصور بحضور الإمام، فقال: نعم هذا صحيح، وهذا هو جعفر بن محمد الذي قلت فيه ما قلت.

فقال له الإمام الصادق: أتحلف أيّها الرجل أن الذي رفعته صحيح؟ فقال الرجل: نعم، ثم أردف يقول: والله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب الحي القيوم.. فقاطعه الإمام قائلًا: لا تعجل بيمينك فإني أستحلفك، فقال المنصور للإمام: وما أنكرت من يمينه؟

فقال الإمام: إن الله حيي كريم يستحي من عبده إذا أثنى عليه أن يعاجله بالعقوبة بمدحه له، ولكن قل أيّها الرجل: أبرأ من الله من حوله وقوته وألج إلى حولي وقوتي إن لم أكن برًا صادقًا فيما أقول. فقال المنصور للرجل: احلف بما استحلفك به أبو عبد الله.

قال راوي الخبر: فحلف الرجل بهذه اليمين، فلم يستكمل كلامه حتى خرّ ميتًا، فراع المنصور ذلك وارتعد، وقال للصادق: يا أبا عبد الله اذهب فوالله لا قبلتُ بعدها فيك قول أحد.

أيها الأخوة المؤمنون؛ هو التاريخ يعيد نفسه، وشياطين الإنس والجن هم اليوم كما كانوا في كل زمان، الوشاة الكاذبون، والمخبرون القتّاتون يأكلون أرزاقهم بدماء المظلومين الصالحين، والله بالمرصاد وعقابه محيط بهم. ولئن استدرجهم في هذه الدنيا فلا تغرنّهم النجاة، فإن لهم موعدًا لن يُخلفوه، وبيننا وبينهم موعدًا أبعده يوم الحشر، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون.

٨- بين إسحاق بن إبراهيم وعفان بن مسلم -رحمهما الله تعالى-.

قال حنبل: حضرت أبا عبد الله وابن معين عند عفان بعدما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحنة، وكان أول من امتحن من الناس عفان، فسأله يحي من الغد بعدما امتحن، وأبو عبد الله حاضر ونحن معه، فقال: أخبرنا بما قال لك إسحاق؟

قال: يا أبا زكريا لم اسودَّ وجهك ولا وجوه أصحابك، إني لم أجب؟ فقال له: فكيف كان؟ قال: دعاني وقرأ عليَّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة، فإذا فيه: امتحن عفان، وادعه إلى أن يقول: القرآن كذا وكذا، فإن قال

ذلك فأقرّه على أمره، وإن لم يُجِبك إلى ما كتبتُ به إليك فاقطع عنه الذي يجري عليه. وكان المأمون يُجري على عفان كل شهر خمسمائة درهم.

فلما قرأ عليّ الكتاب قال لي إسحاق: ما تقول؟ فقرأت عليه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} حتى ختمتها.

فقلت: أمخلوق هذا؟ فقال: يا شيخ إن أمير المؤمنين يقول: إنك إن لم تجبه إلى الذي يدعوك إليه يقطع عنك ما يجري عليك. فقلت: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} فسكت عني، وانصرفت. فسُرَّ بذلك أبو عبد الله ويحيى.

٩- بين الحجاج وحطيط الزيات -رحمه الله تعالى-.

جيء بـ"حطيط الزيات" إلى الحجاج، فقال له الحجاج: أنت حطيط؟ قال: نعم، سل ما بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال: "إن سُئلت لأصدقن، وإن ابتُليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن". فقال الحجاج: فما تقول فيّ؟ قال حطيط: أقول: إنك من أعداء الله في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة. قال الحجاج: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول: إنه أعظم جرمًا منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

فأمر الحجاج بتعذيبه، حتى انتهى به العذاب إلى أن يشقَّق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال، ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئًا، ولا بدا عليه جزع أو ضعف.

فأُخبر الحجاج بأمره، وأنه في الرمق الأخير، فقال: "أخرجوه فارموا به في السوق"، ووقف عليه رجل وهو بين الحياة والموت يسأله: ألك حاجة؟ فما كان من "حطيط" إلا أن قال: "ما لي من حاجة في دنياكم إلا شربة ماء"، فأتوه بشربة شربها، ثم مات، وكان ابن ثماني عشرة سنة!.

١٠- بين الحجاج بن يوسف وسعيد بن جبير -رحمه الله تعالى-.

روت كتب التاريخ أن الإمام سعيد بن جبير- رحمه الله- أُدخل على الحجّاج فقال له الحجّاج: ما اسمك؟، قال: "سعيد بن جبير"، فقال: "بل أنت شقيّ بن كُسير"، فقال: "بل كانت أمّي أعلم بإسمي منك"، فقال الحجاج: شقيت وشقيت أمك، فقال سعيد: الغيب يعلمه غيرك، فقال: لأبدّلنك بالدنيا نارًا تلظّى، فقال سعيد: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا.

فقال الحجاج: ما قولك في محمد؟، قال سعيد: نبي الرحمة وإمام الهدى، فقال: فما قولك في علي؛ أهو في الجنة أو هو في النار؟، فقال سعيد: لو دخلتها وعلمت من فيها عرفت أهلها، فقال الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟، فقال سعيد: لست عليهم بوكيل، فقال الحجاج: فأيهم أحبّ إليك، فقال سعيد: أرضاهم للخالق، فقال الحجاج: فأيهم أرضى للخالق؟، فقال سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

فقال الحجاج: أحبّ أن تصدقني؛ فما بالك لم تضحك؟، فقال سعيد: وكيف يضحك مخلوق خُلق من طين والطين تأكله النار!، فقال الحجاج: فما بالنا نضحك؟، فقال سعيد: لم تستوِ القلوب.

ثم أمر الحجاج فوُضعت الأموال والذهب واللآلئ والزبرجد بين يديه، فقال سعيد: "إن كنت جمعت هذا لتتَّقي به فزع يوم القيامة فصالح، وإلّا ففزعةٌ واحدة تذهل كل مرضعة عمَّا أرضعت، ولا خير في شيء الدنيا إلّا ما طاب وزكا.

ثم أمر الحجاج بالمعازف فضُرب بالعود ونُفخ بالناي، فبكى سعيد، فقال له الحجاج: ما يبكيك؟، فقال سعيد: "هو الحزن، أما النَّفخ فذكَّرني يوم عظيمًا؛ يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قُطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاة تُبعث يوم القيامة".

فقال له الحجاج: ويلك يا سعيد، فقال له سعيد: لا ويل لمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة، فقال الحجاج: اختر يا سعيد أيّ قتلة أقتلك، فقال سعيد: بل اختر لنفسك، فوالله لا تقتلني بقتلة إلّا قتلك الله مثلها في الآخرة.

فقال الحجاج: أتريد أن أعفو عنك؟، فقال سعيد: إن كان العفو فمن الله، وأمّا أنت فلا براءة لك ولا عذر.

فضاق الحجاج به ذرعًا وأمر أتباعه أن يخرجوا به ليقتلوه، فلمّا أُخرج ضحك، فأُخْبِرَ الحجاج بذلك فقال: ردّوه عليّ، ثم سأله: ما يُضحكك؟، فقال: "عجبتُ من جُرأتك على الله وحِلم الله عليك!".

فأمر بالنَّطع فبُسط ثم قال: "اقتلوه"، فقال سعيد: {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، فقال الحجاج: توجّهوا به لغير القبلة، فقال سعيد: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، فقال الحجاج: كبّوه على وجهه، فقال سعيد: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}، قال الحجّاج: اذبحوه. فقال سعيد: "أمّا أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي".

ثم ذُبح الإمام سعيد بن جبير رحمه الله وتقبَّله في الشهداء والصالحين، ولم يلبث الطاغية الظالم بعده إلا أيّام قلائل حتى هلك، وبرّ الله تعالى قسم الإمام الشهيد..

أيها الأخوة المؤمنون؛ هكذا دأب الطغاة المجرمين في كل زمان ومكان، وإن قصصهم لعبرة، قال الحسن البصري عندما جاءه خبر الإمام: "اللهم ائتِ على فاسق ثقيف، والله لو أنَّ ما بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله لكبَّهم الله على وجوههم في النار".

اللهم ائتِ على فساق وكفار وطغاة بلاد المسلمين، فأنت أعلم بما ساموا به عبادك الصالحين..

١١- بين الصالح إسماعيل والعز بن عبد السلام –رحمه الله تعالى-.

ذكرت كتب التاريخ أن سلطان الشام الملقب بالملك الصالح إسماعيل الأيوبيّ كانت بينه وبين أخيه سلطان مصر الملقب بالصالح نجم الدين أيوب نزاعات على الملك، فاستعان إسماعيل على أخيه نجم الدين بالصليبيين وأعطاهم مقابل ذلك عددًا من قلاع المسلمين وحصونهم، وسمح لهم أن يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح والعتاد..

وكان سلطان العلماء العز بن عبد السلام أيامها إمامًا وخطيبًا للجامع الأموي في دمشق، فصعد المنبر وأفتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين، وشدَّد النَّكير على فعلة السلطان إسماعيل وخيانته، وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل وأبدله بدعائه: "اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد تعزّ فيه أولياءك وتذلّ فيه أعداءك، ويُعمل فيه بطاعتك ويُنهى فيه عن معصيتك".

وكان هذا بمثابة إعلانه قطع البيعة، فغضب السلطان إسماعيل وكان خارج دمشق، وأمر بعزله عن الإمامة والخطابة وأمر بحبسه مع بعض أعوانه، ونهض نفرٌ من تلاميذ الشيخ فأعدّوا له مأمنًا وعرضوا عليه الهرب قبل أن يدخل السلطان إسماعيل الشام، فرفض الشيخ عرضهم وقال: "والله لا أهرب ولا أختبئ، وإنما نحن في بداية جهاد ولم نعمل شيئًا بعد، ولقد وطَّدت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل، والله لا يضيع عمل الصابرين".

ثم وُضع الشيخ في الإقامة الجبرية ومُنع من الإفتاء والاتصال بتلاميذه مدة، ثم خرج بعد مراجعات السلطان إلى بيت المقدس فمكث فيه مدة، ثم سيّر الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص وبعض ملوك الفرنجة الصليبيين بضع

عساكرهم إلى بيت المقدس يقصدون مصر لقتال نجم الدين، وهناك دفع إسماعيل ببعض أعيان حاشيته إلى الشيخ يتلطَّف به ليصالحه مقابل أن يعتذر الشيخ.

فدخل الرسول على الشيخ فلاطفه ثم قال له: "بينك وبين أن تعود لمنصبك وماكنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير"، فرد عليه الشيخ قائلًا: "والله يا مسكين لا أرضى أن يقبّل يدي فضلًا أن أقبل يده!، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في واد، الحمد لله عافاني مما ابتلاكم الله به".

فأمر إسماعيل بحبسه واعتقاله في خيمة إلى جانب خيمة قيادته التي تضم حلفاءه الخونة والقوّاد الصليبيين، وذات ليلة سمع إسماعيل العز بن عبد السلام يقرأ القرآن، فقال لملوك الفرنجة: أتسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟، قالوا: نعم، قال: هذا أكبر قساوستنا قد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وقد عزلته عن الخطابة في دمشق وجرّدته من منصبه وأخرجته إلى بيت المقدس، وقد جدّدت حبسه من أجلكم. فقال له ملوك الفرنجة: "لو كان هذا قسيسنا لغسّلنا رجليه وشربنا الماء"!.

ثم وقعت الحرب بين الأخوين وهُزم إسماعيل وحلفاؤه من الصليبيين وانتصر نجم الدين أيوب، فحُمل الشيخ سلطان العلماء العز بن عبد السلام إلى مصر معزّزًا مكرمًا، وتولّى فيه منصب قاضي القضاء -رحمه الله-.

أيّها الأخوة المؤمنون؛ كأنّنا بالتاريخ يعيد نفسه، وتتكرر العِبر والأحداث وتتبدَّل الأسماء والشّخوص، فها هم الملوك الأمراء الخونة يُدخلون الصليبيين في عقر دار الإسلام، وها هم جنودهم ومجنّداتهم يروحون مدجّجين بالأسلحة في طول بلاد الحرمين وعرضها، برًا وبحرًا وجوًا..

وها هم العلماء الصالحون قد أنكروا وأعلنوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فأُودعوا السجون والمعتقلات والإقامات الجبرية، ومُنعوا من الإفتاء والتَّدريس والخطابة، وها هم علماء السّلاطين وحاشيتهم يتردّدُون عليهم ليحظوا منهم بكلمة أو خيانة ليرضى به الفراعنة عنهم..

فمنهم من ينكسر ليحصل على رضى آل سعود ويشتريه بخذلان الإسلام وأهله وإخوانه الدعاة، ومنهم من لا يزال صامدًا نسأل الله لهم الثبات والنصر والفرج، لسان حالهم يقول لأولئك العملاء والمسؤولين: "يا ناس أنتم في واد ونحن في واد، والله لا نرضى أن يقبل ابن سعود أقدامنا لنرضى عنهم فضلًا أن نقبل يده".

فثبتكم الله يا دعاة الإصلاح ويا أيها المجاهدون، ولنا في ثباتكم خير الخلف على خطى العز بن عبد السلام وخير السَّلف.

١٢- بين المأمون والإمام أحمد -رحمه الله-.

روى الذهبي في السير أنه قال الأصم: حدثني عباس الدوري، قال سمعت أبا جعفر الأنباري يقول: لما حُمل أحمد بن حنبل إلى المأمون أُخبرت، فعبرت الفرات فإذا هو جالس في الخان فسلّمت عليه، فقال: يا أبا جعفر تعنّيت، فقلت: يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليُجيبنَّ خلق، وإن أنت لم تجب ليمتنعنّ خلق من الناس كثير.

ومع هذا فإن الرجل -يعني المأمون- إن لم يقتلك فإنك تموت ولا بد من الموت، فاتقِ الله ولا تُجب. فجعل الإمام أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ثم قال: يا أبا جعفر أعد عليّ، فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله.

قال الذهبي: قَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ البُوْشَنْجِيُّ: جَعَلُوا يُذَاكِرُوْنَ أَبَا عَبْدِ اللهِ بِالرَّقَّةِ فِي التَّقِيَّةِ وَمَا رُوِيَ فِيْهَا. فَقَالَ: كَيْفَ تَصْنَعُوْنَ بِحَدِيْثِ خَبَّابٍ: (إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ يُنْشَرُ أَحَدُهُمْ بِالمِنْشَارِ، لاَ يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِيْنِهِ). فَأَيِسنَا مِنْهُ.

قال صالح بن أحمد قال أبي: فلمّا صرنا إلى أدنة ورحلنا منها في جوف الليل وفتح لنا بابها إذا رجل قد دخل فقال: بشرى قد مات الرجل، يعني المأمون. قال أبي: وكنت أدعو الله أن لا أراه.

أيها الأخوة المؤمنون؛ محن تأتي فتنقسم الناس وتتمايز أقدارهم، فظلّام يقومون على الفتنة والمحنة، وأتباع ضالّون يشدّون أزرهم على الباطل، وأئمة قدوة يثبتون، وأتباع صالحون يشدّون أزرهم ويعضدونهم، وعوام ينتظرون ماذا يفعل القدوة ليقتدوا بهم أو ينهاروا بتقهقرهم، ومتردّدون عرفوا الحق وتركوه لضعفهم يبحثون عن الرُّخص والتّقية، فيثبت الثابتون يتأسّون ويتزوّدون بقصص ثبات الأوائل..

وقدر الله النافذ؛ يهلك الظالمون فيُفضون إلى ما قدّموا من الضياع الذي لا ينفع معه الندم، ويلاقي الثَّابتون ربهم على ما أعدّ لهم من النعيم بما صبروا، فنعم عقبى الدار..

أيها الأخوة الصابرون: هكذا أخبر ربنا في الحديث القدسي؛ ما هي إلّا أعمالنا يحصيها علينا، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غيره ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه، فنسأل الله العافية والهدى.

١٣ - بين المعتصم والإمام أحمد –رحمه الله-.

حدَّث الإمام أحمد –رحمه الله- عن محنته، فكان مما رواه عن قصته مع المعتصم مشاهد سطّرها التاريخ بمداد من ذهب، وكان مما روى –رحمه الله-:

"فلما كان اليوم الثالث أُدخلت على المعتصم والقوم حاضرون، فجعلت أدخل من دار إلى دار وقومٌ معهم السيوف وقومٌ معهم السياط، وغير ذلك من الزيّ والسلاح، حتى صرت إليه، قال: ناظروه، كلّموه. فعادوا لمثل مناظرتهم..

حتى إذا كان في الوقت الذي يخلو لي فيه دعاني، فخلا بي وبعبد الرحمن بن إسحاق، فقال لي: وَيحك يا أحمد! أنا والله عليك شفيق وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني، فأجبني.

فقلت: يا أمير المؤمنين اعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله.

فلمّا ضجر وطال المجلس قال: عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيه، خذوه فاخلعوا ثيابه واسحبوه. فأُخذت فسُحبت ثم قال: العقابين والسياط، فجيء بالعقابين والسياط، وقد كان صار إلي شعرتان من شعر النبي –صلى الله عليه وسلم- فصررتُهم وجعلتهما في كُم قَميصي، ثم قال للجلادين تقدّموا. فنظر إلى السياط. فقال: ائتوا بغيرها، ثم قال: تقدموا. فقال لأحدهم: شُدّ، قَطع الله يدك، فتقدم فضربني سوطين ثم تنحَّى.

قال المقريزي: "فَلَمَّا ضُربَ أحمد سوطًا، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، فَلَمَّا ضُربَ الثَّانِي، قَالَ: لاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ. فَلَمَّا ضُربَ الثَّالِثَ، قَالَ: القُرْآنُ كَلاَمُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوْقٍ. فَلَمَّا ضُربَ الرَّابِعَ قَالَ: {قُلْ لَنْ يُصِيْبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا}، فَضرُبِه مائتين وعشيرين سوطًا، وَكَانَتْ تِكَّتُهُ سراويله قد انقطعت، فَنَزَلَ السَّرَاويلُ إِلَى عَانتِهِ، فَقُلْتُ: السَّاعَةَ يَنْهَتِكُ. فرَمَى بِطرفِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَحَرَّكَ شَفتَيهِ، فَمَا كَانَ بِأسرَعَ مِنْ أَنْ بَقِيَ السَّرَاويلُ ولَمْ يَنْزِلْ.

قال ميمون: فَدَخَلْتُ عَلَى أبي عبد الله بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؛ رَأَيْتُكَ وَقَدِ انْحلَّ سرَاويلُكَ، فَرَفَعتَ طَرْفَكَ إلى السَّمَاءِ ورأيت تحرّك شفتيك فأيّ شيءٍ قلت؟ قَالَ: قُلْتُ: "اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي مَلأتَ بِهِ العَرْشَ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي عَلَى الصَّوَابِ، فَلاَ تَهْتِكْ لِي سِترًا".

قال الإمام أحمد: ثم قام المعتصم حتى جاءني وهم محدّقون به، فجعل يقول: ويحك يا أحمد! تقتل نفسك، ويحك يا أحمد أجبني أطلقك بيدي، فجعل بعضهم يقول: ويلك يا أحمد! إمامك على رأسك قائم!، وجعل عجيل ينخس بقبضة سيفه ويقول: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم، ثم يقول بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي.

ثم رجع فَجلس فقال للجلاد: شُدَّ قطع الله يدك! ثم لم يزل يدعو جلادًا بعد جلاد يضربني سوطين ويتنحَّى وهو يقول: شُدَّ قطع الله يدك!، ثم قام إليّ ثانيةً فجعل يقول: يا أحمد أجبني.

فجعل عبد الرحمن بن إسحاق يقول لي: من صنع بنفسه من أصحابك في هذا الأمر مثلما صنعت؟ فهذا يحيى بن معين وهذا أبو خيثمة وابن أبي إسرائيل.. وجعل يعدّد من أجاب. وجعل المعتصم يقول: ويحك أجبني، فجعلت أقول نحوًا مما كنت أقوله لهم.

قال الرواة: فجاء الجلاد أبو الرن فقال المعتصم: بكم تقتله؟ فقال: بخمسة عشر أو عشرين سوطًا، فقال شدّ قطع الله يدك.

يقول الإمام أحمد: ثم جعل يقول للجلاد: شد قطع الله يدك، فذهب عقلي وما عقلت إلّا وأنا في حجرة مطلق اليد، فقال إنسان: إنا كبَبْناك على وَجهك وطَرحنا على ظهرك باريّةً ودُسْناكَ. قال: فما شعرتُ بذلك.

أيها الأخوة المؤمنون؛ واستمرت رحلة العذاب والفتن والثبات مع إمامنا الجليل حتى إذا أيسوا منه خشوا أن يُقتل، وتوارت إليه أخبار هيجان الناس لثباته، فأراد المعتصم أن لا يهزّ عرشه، فدعا عم الإمام أحمد، ثم قال للناس: أتعرفونه؟ فسأله أمامهم: أليس أسلمناه إليكم صحيح البدن؟ فقال برأسه نعم، ولو قال لا لحدثت الشرور. وهكذا هدأ الناس، حتى استسلم المعتصم فقال لابن أبي دؤاد وصحبه عن الإمام: ليس هذا كما وصفتم.

كل هذا ونجد الإمام لا يزيد في ثباته في المحنة على أن يقول: "والله لقد أعطيت المجهود من نفسي ولوددت أن أنجو من هذا الأمر كفافًا لا لي ولا عليّ."

أيها الأخوة المؤمنون؛ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ونسأل الله أن يثبت أئمتنا أئمة الهدى والإصلاح، وأن يأخذ بأيدينا على طريق الثابتين، ويجمعنا بهم في الدنيا والآخرة، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

١٤- بين المهدي والثوري -رحمه الله تعالى-.

قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وقد أُتي بسفيان الثوري، فلما دخل عليه سلَّم تسليم العامة ولم يسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه متكئًا على سيفه يرقب أمره. فأقبل عليه المهدي بوجه طلق، وقال له: يا سفيان، تفرّ منا ها هنا وها هنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

قال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيكَ ملك قادر يفرق بين الحق والباطل. فقال له الربيع: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ ائذن لي أن أضرب عنقه. فقال له المهدي: اسكت ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألَّا يُعترض عليه في حكم. فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج فرمى به في دجلة وهرب، فطلُب في كل بلد فلم يوجد.

ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعي قال الشاعر:

تحرَّز سفيان وفرَّ بدينه ... وأمسى شريك مرصدًا للدراهم

١٥- بين الناصر وعبد المغيث بن زهير -رحمهما الله تعالى-.

إن الخليفة الناصر لما بلغه نهي عبد المغيث عن سبّ يزيد تنكر وقصده، وسأله عن ذلك، فتباله عنه، وقال: يا هذا إنما قصدت كفّ الألسنة عن لعن الخلفاء، وإلا فلو فتحنا هذا لكان خليفة الوقت أحق باللعن؛ لأنه يفعل كذا، ويفعل كذا، وجعل يعدّد خطاياه، قال: يا شيخ ادعُ لي، وقام.

١٦– بين الواثق وشيخ من أهل أذنة

حدّث المهتدي بالله ابن الخليفة المسمّى الواثق مع نهاية فتنة خلق القرآن مع أبيه وكيف كان أمرها فقال: "مَا زِلْتُ أَقُوْلُ: القُرْآنُ مَخْلُوْقٌ صَدْرًا مِنْ أَيَّامِ الوَاثِقِ حَتَّى أَقْدَمَ شَيْخًا مِنْ أَذَنَةَ، فَأُدْخِلَ مُقَيَّدًا، وَهُوَ شَيْخٌ جَمِيْلٌ، حَسَنُ الشَّيبَةِ، فَرَأَيْتُ الوَاثِقَ قَدِ اسْتَحْيَا مِنْهُ، وَرَقَّ لَهُ، فَمَا زَالَ يُدْنِيهِ حَتَّى قَرُبَ مِنْهُ، وَجَلَسَ، فَقَالَ: نَاظِرِ ابْنَ أَبِي دُوَادَ.

قَالَ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، إِنَّهُ يَضْعُفُ عَنِ المُنَاظَرَةِ.

فَغَضِبَ، وَقَالَ: أَبُو عَبْدِ اللهِ يَضْعُفُ عَنْ مُنَاظَرَتِكَ أَنْتَ؟!

قَالَ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، وَائْذَنْ لِي، وَاحْفَظْ عَلَيَّ وَعَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَحْمَدُ، أَخْبِرْنِي عَنْ مَقَالَتِكَ هَذِهِ، هِيَ مَقَالَةٌ وَاجِبَةٌ دَاخِلَةٌ فِي عَقْدِ الدِّيْنِ، فَلاَ يَكُوْنُ الدِّيْنُ كَامِلًا حَتَّى تُقَالَ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ رَسُوْلِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِيْنَ بَعَثَهُ اللهُ، هَلْ سَتَرَ شَيْئًا مِمَّا أُمِرَ بِهِ؟

قَالَ: لاَ.

قَالَ: فَدَعَا إِلَى مَقَالَتِكَ هَذِهِ؟

فَسَكَتَ، فَقَالَ الشَّيْخُ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، وَاحِدَةٌ.

قَالَ الوَاثِقُ: وَاحِدَةٌ.

ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ اللهِ تَعَالَى حِيْنَ قَالَ: {اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ}، أَكَانَ اللهُ هُوَ الصَّادِقُ فِي إِكْمَالِ دِيْنِنَا، أَوْ أَنْتَ الصَّادِقُ فِي نُقْصَانِهِ حَتَّى يُقَالَ بِمَقَالَتِكَ؟

فَسَكَتَ أَحْمَدُ، فَقَالَ الشَّيْخُ: اثْنَتَانِ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ.

قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ مَقَالَتِكَ هَذِهِ، أَعَلِمَهَا رَسُوْلُ اللهِ، أَمْ جَهِلَهَا؟

قَالَ: عَلِمَهَا.

قَالَ: فَدَعَا إِلَيْهَا؟

فَسَكَتَ.

قَالَ الشَّيْخُ: ثَلاَثَةٌ.

ثُمَّ قَالَ: فَاتَّسَعَ لِرَسُوْلِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يُمْسِكَ عَنْهَا، وَلَمْ يُطَالِبْ أُمَّتَهُ بِهَا؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: وَاتَّسَعَ ذَلِكَ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ؟

قَالَ: نَعَمْ.

فَأَعْرَضَ الشَّيْخُ عَنْهُ، وَقَالَ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، قَدْ قَدَّمْتُ القَوْلَ بِأَنَّ أَحْمَدَ يَضْعُفُ عَنِ المُنَاظَرَةِ، يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، إِنْ لَمْ يَتَّسِعْ لَكَ مِنَ الإِمْسَاكِ عَنْ هَذِهِ المَقَالَةِ مَا زَعَمَ هَذَا أَنَّهُ اتَّسَعَ لِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَصْحَابِهِ، فَلاَ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْكَ.

قَالَ الوَاثِقُ: نَعَمْ، كَذَا هُوَ، اقْطَعُوا قَيْدَ الشَّيْخِ.

فَلَمَّا قَطَعُوْهُ، ضَرَبَ بِيَدِهِ، فَأَخَذَهُ، فَقَالَ الوَاثِقُ: لِمَ أَخَذْتَهُ؟

قَالَ: لأَنِّي نَوَيْتُ أَنْ أُوْصِيَ أَنْ يُجْعَلَ مَعِيَ فِي كَفَنِي لأُخَاصِمَ هَذَا بِهِ عِنْدَ اللهِ.

ثُمَّ بَكَى، فَبَكَى الوَاثِقُ، وَبَكَيْنَا، ثُمَّ سَأَلَهُ الوَاثِقُ أَنْ يُحَالَّهُ، وَأَمَرَ لَهُ بِصِلَةٍ.

فَقَالَ: لاَ حَاجَةَ لِي بِهَا.

ثُمَّ قَالَ المُهْتَدِي: فَرَجَعْتُ عَنْ هَذِهِ المَقَالَةِ، وَأَظُنُّ الوَاثِقَ رَجَعَ عَنْهَا فِي يَوْمَئِذٍ.

أيّها الأخوة المؤمنون؛ لقد كان في قصصهم عبرة، فهذا شيخ من أهل الخير والصلاح الثابتين، لم تُثبت كتب السير اسمه ونُسب إلى محلّته، كان على يده وما أجرى الله من الحق على لسانه بداية نهاية المحنة، ولكن الله عرفها وأثبتها له إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فيا ليت قلوبًا نائمة تعي هذه الدروس والعبر.!

١٧- بين أمراء العُبيديين وابن النابلسي –رحمه الله تعالى-.

أقام جوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ ، فقال له: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وجب أن يرمي في الروم سهمًا وفينا تسعة، قال: ما قلتُ هذا؛ بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا؛ فإنكم غيّرتم الملة، وقتلتم الصالحين، وادّعيتم نور الإلهية.

فشهره ثم ضربه، ثم أمر يهوديًا فسلخه.

١٨ – بين أمراء العبيديين و الإمام ابن الحبلي –رحمه الله تعالى-.

أتى أمير برقة الإمام ابن الحبلي، فقال: غدًا العيد. قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلد إثمهم . فقال: بهذا جاء كتاب المنصور –وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون الرؤية- فلم يرَ الهلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد.

فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي. فأمر الأمير رجلًا خطب، وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تنصل، وأعفو عنك. فامتنع، فأُمر به فعُلّق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة. فلعنة الله على الظالمين..

١٩- بين أمراء المماليك والعز بن عبد السلام –رحمه الله تعالى-.

لما تولى الشيخ عز الدين القضاء تصدّى لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وإن حكم الرقّ مُستصحَب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظُم الخَطْب عندهم، واحتدم الأمر، والشيخ مصمّم لا يصحّح لهم بيعًا ولا شراءً ولا نكاحًا، وتعطّلت مصالحهم لذلك.

وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشار غضبًا، فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلسًا، وننادي عليكم لبيت مال المسلمين، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع. فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يُفِد فيه، فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنَّه بسيفي هذا.

فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال، فما اكترث لذلك، وقال: "يا ولدي، أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله"، ثم خرج.

وحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي إيش -أي ماذا- تعمل؟ فقال: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: ففيمَ تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا.

فتمَّ ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم ولم يبعهم إلا بالثمن الوافي، وقبضه وصرفه في وجوه الخير.

٢٠ - بين أمراء مصر الفاطميين وابن الحطيئة -رحمه الله تعالى-.

رُوِيَ عن الإمام القدوة شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد المغربي المقرئ الشهير بابن الحطيئة، المعروف بالعلم والتقوى والشدة في الدين، أورد الذهبي في سيرته عن شجاع المُدْلِجِيّ قال:

"كَانَ شَيْخُنَا ابْنُ الحطيئَةِ شديدًا فِي دِينِ اللهِ فَظًّا غليظًا عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ، لَقَدْ كَانَ يَحضُرُ مَجْلِسَهُ دَاعِي الدُّعَاةِ أبو القاسم المصري التنوخي قاضي الخليفة العاضد، مَعَ عِظَمِ سُلْطَانِهِ، وَنُفوذِ أَمرِهِ، فَمَا يَحتشمُهُ وَلاَ يُكرِمُهُ، وَيَقُوْلُ: أَحْمَقُ النَّاسِ فِي مَسْأَلَةِ كَذَا وَكَذَا الرَّوَافضُ، خَالفُوا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَكفرُوا بِاللهِ.

وَكُنْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا فِي مسجدِهِ بشرَفِ مِصْرَ، وَقَدْ حضَرَهُ بَعْضُ وُزرَاءِ المِصْرِيّينَ، أَظنُّهُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَاسْتسقَى فِي مَجْلِسِهِ، فَأَتَاهُ بَعْضُ غِلمَانِهِ بِإِنَاء فِضَّةٍ، فَلَمَّا رَآهُ ابْنُ الحطيئَةِ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ، وَصرَخَ صرخَةً ملأَتِ المَسْجَدَ، وَقَالَ: وَاحرَّهَا عَلَى كبدِي! أَتَشْرَبُ فِي مَجْلِسٍ يُقرَأُ فِيْهِ حَدِيْثُ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي آنيَةِ الفِضَّةِ؟! لاَ وَاللهِ لاَ

تَفْعَلْ. وَطَرَدَ الغُلاَمَ فَخَرَجَ، وَطلبَ الشَّيْخُ كُوزًا فَجِيْءَ بِكُوزٍ قَدْ تَثَلَّمَ، فَشرِبَ وَاسْتَحيَى مِنَ الشَّيْخِ، فَرَأَيْتُهُ -وَاللهِ- كَمَا قَالَ اللهُ: {يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيْغُهُ}.

وَعَرَضُوا عَلَيْهِ القَضَاءَ بِمِصْرَ، فَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَقضِي لَهُم، وبَقُوا بِمِصْرَ ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ بِلاَ قَاضٍ فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِيْنَ وثلاثمئة، فَوَقَعَ اخْتِيَارُ الدَّوْلَةِ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي العَبَّاسِ، فَاشترَطَ عَلَيْهِم شُرُوطًا صعبَةً، مِنْهَا: أَنَّهُ لاَ يَقضِي بِمَذْهَبِهِم، يَعْنِي: الرَّفْضَ، فَلَمْ يُجِيبُوا.

وروي عنه -رحمه الله- أنّه كان متقشّفًا مُقلًا في الطعام حتى بلغ الغاية، وجاءه أحدهم بِمِئْزَرٍ وَحَلَفَ بِالطَّلاَقِ ثَلاَثًا لاَ بُدَّ أَنْ يَقبَلَهُ، فَوبَّخَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ: عَلِّقْهُ عَلَى ذَاكَ الوتَدِ. فَلَمْ يَزَلْ عَلَى الوتدِ حَتَّى أَكَلَهُ العُثُّ وَتَسَاقَطَ، وَكَانَ -رحمه الله- ينسخ الكتب.

أيّها الأخوة المؤمنون؛ هكذا كان الملوك والجبابرة ينكسرون لثبات أهل الحق وائمة الهدى، فأولئك العبيديون كانوا من غلاة الروافض الذين كفَّرهم أهل السنة في عصرهم، وكانوا قتلة ظلمة، سفكوا من الدماء بلا حساب ولا عتاب ما شاء الله لهم، ومع لك لم يكن ذلك ليثني أئمة الهدى الذين حفظ الله بهم الدين، وباد أولئك الفراعنة.

واليوم يقارن المرء بين تاريخ هذه الأمة وما يصيبها اليوم، فليت المنكر انعقد على شرب القوم في آنية الفضة!؛ فقد استعلتِ الأنظمة الوضعيَّة الكافرة، وناطحت أبراج بنوك الربا مآذن الحرم، وعمَّت المنكرات والدشوش والفواحش العِظام كافّة مناحي الحياة..

ودخل النصارى عقر دار المؤمنين، وصار كبار الأمراء والملوك رؤوسًا للنهب والسلب والظلم، وأمثلة تُحتذى في الزنا والخمر والمخدرات والفجور، وأُغلقت أبواب السجون على أئمة الهدى والصلاح ودعاة الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فيا فرج الله اقترب ويا رحمة الله أغيثي هذه الأمة المستضعفة فقد طمّ الخطب..!

٢١- بين الظاهر بيبرس والإمام النووي -رحمهما الله تعالى-.

لما خرج الظاهر بيبرس إلى قتال التتار بالشام، أخذ فتاوى العلماء بجواز أخذ مال من الرعيّة يستنصر به على قتالهم، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه. فقال: هل بقي أحد؟. قيل له: نعم، بقي الشيخ محيي الدين النووي. فطلبه، فحضر، فقال له: "اكتب خطابك مع الفقهاء"، فامتنع.

فقال: ما سبب امتناعك؟. فقال: "أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير (بندقار) وليس لك مال، ثم منّ الله عليك وجعلك ملكًا، وسمعت أن عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مئتا جارية لكل جارية حق من الحليّ، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلًا من الحوائص وبقيت الجواري بثيابهن دون الحليّ، أفتيتك بأخذ المال من الرعية".

فغضب الظاهر من كلامه، وقال: "اخرج من بلدي"، يعني دمشق. فقال: "السمع والطاعة"، وخرج إلى نوى. فقال الفقهاء: "إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به، فأعده إلى دمشق". فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ، وقال: "لا أدخلها والظاهر فيها"، فمات الظاهر بعد شهر.

٢٢-بين جعفر المتوكل والإمام أحمد -رحمه الله تعالى-.

انقضت أيام المأمون والمعتصم والواثق وأحمد بن حنبل وأهل الإسلام في محنة وبلاء من السلاطين وعلماء السوء في فتنة خلق القرآن. قال حنبل عمّ الإمام أحمد:

"ثم ولي المتوكل جعفر فأظهر الله السّنة وفرّج عن الناس، وكان أبو عبد الله -يقصد الإمام أحمد- يحدّثنا ويحدّث الناس في أيام المتوكّل، ثم إنَّ أحدهم رفع للمتوكلِ: إنَّ أَحْمَدَ رَبَّصَ عَلَوِيًّا فِي مَنْزِلِهِ، يُرِيْدُ أَنْ يُخْرِجَهُ وَيُبَايِعَ عَلَيْهِ.

قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ عِنْدنَا عِلمٌ، فَبَينَا نَحْنُ ذَاتَ لَيْلَةٍ نِيَامٌ فِي الصَّيْفِ، سَمِعنَا الجَلَبَةَ، وَرَأينَا النِّيرَانَ فِي دَارِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ فَتَّشوا مَنْزِلَ أَبِي عَبْدِ اللهِ وَالسرب وَالغُرف وَالسطوح، وَفتَّشوا تَابوتَ الكُتُبِ، وَفتَّشوا النِّسَاءَ وَالمَنَازِلَ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا.

فلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ، إِذَا يَعْقُوْبُ -أَحَدُ حُجَّابِ المُتَوَكِّلِ- قَدْ جَاءَ فَاسْتَأْذَنَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، فَقَرَأَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ: إِنَّه صَحَّ عِنْدَ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ بَرَاءةُ سَاحَتِكَ، وَقَدْ وَجَّهَ إِلَيْكَ بِهَذَا المَالِ تَسْتَعِينُ بِهِ.

فَأَبَى أَنْ يَقبَلَهُ، وَقَالَ: مَا لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ.

فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، اقبلْ مِنْ أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مَا أَمرَكَ بِهِ، فَإِنَّه خَيْرٌ لَكَ عِنْدَهُ، فَإِنَّكَ إِنْ رَدَدتَه، خِفتُ أَنْ يَظُنَّ بِكَ سُوءًا. فَحِيْنَئِذٍ قَبِلَهَا.

فَلَمَّا خَرَجَ، قَالَ: يَا أَبَا عَلِيّ.

قُلْتُ: لَبَّيكَ.

قَالَ: ارفعْ هَذِهِ الإِنْجَانَةَ وَضَعْهَا تَحْتَهَا.

فَفَعَلتُ، وَخَرَجْنَا.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ، إِذَا أُمُّ وَلَدِ أَبِي عَبْدِ اللهِ تَدقُّ عَلَيْنَا الحَائِطَ، فَقَالَتْ: مَوْلاَيَ يَدعُو عَمَّه.

فَأَعْلَمتُ أَبِي، وَخَرَجْنَا، فَدَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ، وَذَلِكَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: يَا عَمِّ! مَا أَخَذَنِي النَّومُ.

قَالَ: وَلِمَ؟

قَالَ: لِهَذَا المَالِ.

وَجَعَلَ يَتَوَجَّعُ لأَخذِهِ، وَأَبِي يُسَكِّنُهُ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: حَتَّى تُصبِحَ وَتَرَى فِيْهِ رَأْيَكَ، فَإِنَّ هَذَا لَيْلٌ، وَالنَّاسُ فِي المَنَازِلِ.

فَأَمسَكَ وَخَرَجنَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ السَّحَرِ، وَجَّهَ إِلَى جَمَاعَةٌ، وأنا وصالح وعبد الله حاجزون، فجعلنا نكتب من يذكرونه من أَهْلِ السِّترِ وَالصَّلاَحِ بِبَغْدَادَ وَالكُوْفَةِ، فَفَرَّقَهَا كُلَّهَا مَا بَيْنَ الخَمْسِيْنَ إِلَى المائَةِ، وَإِلَى المائَتَيْنِ، فَمَا بَقِيَ فِي الكِيْسِ دِرْهَمٌ".

وروى الرواة أن الخليفة المتوكل طلب أحمد ليكرمه هو وأهله في دار إقامته في سامراء المسمى بالعسكر، وحمل أحمد وأهله للمتوكل، قال حنبل: دَخلْنَا إِلَى العَسْكَرِ، فَإِذَا نَحْنُ بِمَوْكِبٍ عَظِيْمٍ مُقبلٍ، فَلَمَّا حَاذَى بِنَا، قَالُوا: هَذَا وَصِيْفٌ.

وَإِذَا بفَارِسٍ قَدْ أَقبلَ، فَقَالَ لأَبِي عَبْدِ اللهِ: الأَمِيْرُ وَصِيْفٌ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ، وَيَقُوْلُ لَكَ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَمكنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ – يَعْنِي: ابْنَ أَبِي دُوَادَ– وَأَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ يَقبَلُ مِنْكَ، فَلاَ تَدَعْ شَيْئًا إِلاَّ تَكَلَّمتَ بِهِ. فَمَا رَدَّ عَلَيْهِ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَيْئًا.

وَمَضَينَا فَأُنزلنَا فِي دَارٍ فلَمْ يَعْرِفْ أَبُو عَبْدِ اللهِ، فَسَأَلَ بَعْدُ: لِمَنْ هَذِهِ الدَّارُ؟ قَالُوا: هَذِهِ دَارُ أيتام. قَالَ: حَوِّلُونِي، اكْتَرُوا لِي دَارًا. قَالُوا: هَذِهِ دَارٌ أَنزَلَكَهَا أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ. قَالَ: لاَ أَبِيتُ هَا هُنَا.

فاكتَرَينَا لَهُ دَارًا، وَكَانَتْ تَأْتِينَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَائِدَةٌ فِيْهَا أَلوَان الطعام يَأْمُرُ بِهَا المُتَوَكِّلُ، فَمَا ذَاقَ مِنْهَا أَبُو عَبْدِ اللهِ شَيْئًا، وَكَانَت نَفَقَةُ المَائِدَةِ فِي اليَوْمِ مائَةً وَعِشْرِيْنَ دِرْهَمًا.

ثُمَّ أَجْرَى المُتَوَكِّلُ عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَرْبَعَةَ آلاَفٍ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو عَبْدِ اللهِ: إِنَّهُم فِي كِفَايَةٍ، وَلَيْسَتْ بِهِم حَاجَةٌ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ المُتَوَكِّلُ: إِنَّمَا هَذَا لِوَلَدِكَ، فَمَا لَكَ وَلِهَذَا؟

واستمر الإمام أحمد كما ذكرت الرواية يتأ لم لفتنة الفرج والظفر والغنى ويطلب من الخليفة أن يأذن له بالرحيل، حتى أذِن له، فرحل وقد بلغ به الجهد حافة الهلاك من الصوم والإمساك عمَّا جاءه من الخليفة، وتصدَّق بكل ما أعطوه حتى بالثياب وبأكياس الدراهم.

وكان يقول: "إِنَّمَا يُرِيْدُوْنَ أن أُحدِّثُ وَيَكُوْنُ هَذَا البَلَدُ –يعني عاصمة الخليفة– حَبْسِي، وَإِنَّمَا كَانَ سَبَبَ الَّذِيْنَ أَقَامُوا بِهَذَا البَلَدِ لَمَّا أُعطُوا فَقَبِلُوا، وَأُمِرُوا فَحَدَّثُوا، وَاللهِ لَقَدْ تَمَنَّيتُ المَوْتَ فِي الأَمْرِ الَّذِي كَانَ، وَإِنِّي لأَتَمَنَّى المَوْتَ فِي هَذَا وَذَاكَ؛ إِنَّ هَذَا فِتْنَةَ الدُّنْيا، وَذَاكَ كَانَ فِتنَةَ الدِّينِ". ثُمَّ جَعَل يَضُمُّ أَصَابعَه، وَيَقُوْلُ: "لَوْ كَانَت نَفْسِي فِي يَدِي، لأَرسَلْتُهَا". ثُمَّ يفتَحُ أَصَابِعَه.

وأنكر على أخيه وأولاده ما قبلوا من جوائز أمير المؤمنين، وسدَّ الأبواب بينه وبيهم وتحاشى منزلهم حتى خرج من عاصمة الخليفة، وكان كلما طُلب منه الحضور أو قبول الجوائز قال: أنا رجل لم أخالط السلطان، وقد عفاني أمير المؤمنين مما أكره وهذا مما أكره.

وبقي كذلك إلى أن توفي –رحمه الله– في زمن المتوكل، وصلَّى عليه جموع ذكر الرواة أنَّهم شارفوا على الألف ألف إنسان..

أيّها الأخوة المؤمنون؛ صدق الله العظيم: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

٢٣- بين سليمان بن عبد الملك وطاووس -رحمهما الله تعالى-.

حجَّ سليمان بن عبد الملك، فخرج حاجبه ذات يوم فقال: إن أمير المؤمنين قال: ابعثوا إليّ فقيهًا أسأله عن بعض المناسك.

قال: فمرَّ طاووس -رحمه الله- فقالوا: هذا طاووس اليماني، فأخذه الحاجب فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: أعفِني، فأبى.

قال: فأدخله عليه فقال طاووس: فلما وقفت بين يديه قلت: إن هذا المجلس يسألني الله عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جبٍّ في جهنم هوت فيها سبعين خريفًا حتى استقرت قرارها، أتدري لمن أعدَّها الله؟ قال: لا! ثم قال: ويلك لمن أعدها الله؟ قلت: لمن أشركه الله في حكمه فجار، قال: فبكى لها.

٢٤- بين عبد الرحمن الناصر والمنذر بن سعيد -رحمهما الله تعالى-.

كان الخليفة الناصر لدين الله كلِفًا بعمارة الأرض وإقامة معالمها، وتخليد الآثار الدَّالة على قوة الملك وعزّ السلطان؛ فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء، البناء الذي شاع ذكره، واستفرغ وسعه في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها. فانهمك في ذلك حتى عطَّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ثلاث جمع متوالية.

وكان منذر بن سعيد يتولَّى خطبة الجمعة والقضاء، ورأى -خروجًا من تبِعة التَّقصير فيما أوجبه الله على العلماء- أن يُلقي على الخليفة الناصر درسًا بليغًا يحاسبه فيه على إسرافه وإنفاقه في مدينة الزهراء، ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس في المسجد الجامع بالزهراء..

فلما كان يوم الجمعة اعتلى المنبر والخليفة الناصر حاضر والمسجد غاصٌّ بالمصلّين، وابتدأ خطبته فقرأ قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ*وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

ثم مضى في ذمّ الإسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد، ثم تلا قوله تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

وراح يحذّر وينذر ويحاسب، حتى ادَّكر من حضر من الناس وخشعوا، وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب، وقد علم أنه المقصود، فبكى وندم على تفريطه.

غير أن الخليفة لم يحتمل صدره تلك المحاسبة العلنيّة وشدَّة ما سمع، فقال شاكيًا لولده الحكم: "والله لقد تعمّدني منذر بخطبته وما عنى بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي"، ثم استشاط غيظًا عليه متذكّرًا كلماته وأراد أن يعاقبه لذلك.

فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، وجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف خطيب جامع قرطبة.

ولكن لما رأى ولده الحكم تعلّق والده بالزهراء والصلاة في مسجدها العظيم. قال له: "ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة به إذا كرهته؟" ولكن الناصر زجره وانتهره قائلًا: "أمثل منذر بن سعيد في فضله وعلمه وخيره –لا أمّ لك– يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الحق؟! هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله ألَّا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنه أحرجني فأقسمت، ولوددت أن أجد سبيلًا إلى كفارة يميني، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله، فما أظن أنا نعتاض منه أبدًا".

ولما اشتدت الفجوة بين الشيخ منذر بن سعيد والخليفة عبد الرحمن نتيجة محاسبة المنذر له في إسرافه على بناء الزهراء، أراد ولده الحكم أن يزيل ما بينهما فاعتذر له عند الخليفة.

فقال: "يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح وما أراد إلا خيرًا، لو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك"؛ يريد بالبنية هنا القبة التي بناها الناصر بالزهراء واتخذ قرامدها من فضة وبعضها من مغش بالذهب، وجعل سقفها نوعين صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة يستلب الأبصار شعاعها.

فلما قال له ولده ذلك أمر ففُرشت بفرش الدّيباج وجلس فيها لأهل دولته. ثم قال لقرابته وزرائه: "أرأيتم أم سمعتم ملكًا كان قبلي صنع مثلما صنعت؟". فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك الأوحد في شأنك.

فبينما هم على ذلك، إذ دخل منذر بن سعيد ناكسًا رأسه، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته، فأقبلت دموع المنذر تنحدر على لحيته لسوء ما رأى. وقال: "والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، ولا

أن تمكّنه من قِبلك هذا التّمكن، مع ما آتاك الله وفضّلك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين". فاقشعر الخليفة من قوله وقال له: "انظر ما تقول كيف أنزلني الله منازلهم؟!".

فقال: "نعم، أليس الله تعالى يقول: {وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ}". فوجم الخليفة وأطرق مليًا، ودموعه تنحدر على لحيته، ثم أقبل على المنذر وقال له: "جزاك الله خيرًا وعن الدين خيرًا، فالذي قلت هو الحق". ثم قام من مجلسه، وأمر بنقض سقف القبة وأعادها ترابًا على صفة غيرها.

٢٥- بين عبدالله بن علي والأوزاعي –رحمه الله-.

تذكر كتب التاريخ عن لقاء الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام بقائد جيش العباسيين الذي أطاح بآخر خلفاء بني أمية قصة فيها زاد وعبرة، فلنستمع إلى وقائع اللقاء يرويه صاحب بنفسه –رحمه الله-:

قال الأوزاعي وكان عبد الله بن علي أمير العباسيين قد طلبه إليه فتأخر عليه بعد أن طلبه ثلاثة أيام، قال: "دخلت عليه وهو على سرير وعلى يده خيزرانة والحراس عن يمينه وشماله، معهم السيوف المصلتة والغبن والحديد. فسلَّمت عليه فلم يرد، ونكث بتلك الخيزرانة التي بيده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعناه من إزالة ايدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد أجهادٌ ورباطٌ هو؟

فقلت: أيها الأمير؛ سمعت يحي بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت محمد بن إبراهيم التميمي يقول: سمعت علقمة بن قاسم يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه).

فنكث بالخيزرانة أشدّ ما ينكث وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعي، ما تقول في دماء بني أمية؟

فقلت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث؛ النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة).

فنكث بها أشد من ذلك ثم قال: ما تقول في أموالهم؟

فقتل: إن كان في أيديهم حرام فهي حرام عليك أيضًا، وإن كان حلالًا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي.

فنكث أشد ما ينكث ثم قال: ألا نُولّيك القضاء؟

فقلت: إنّ أسلافك لم يكونوا يشقّون علينا في ذلك، وإنيّ أحبّ أن يتمّ ما ابتدأوني به من الإحسان.

ثم انتظرت رأسي أن يسقط بين يديّ. فأمرني بالانصراف".

أيها المستمع الكريم، كان عبد الله بن علي هذا عمّ أبي جعفر المنصور من أشد قواد بني العباس فتكًا وأكثرهم سفكًا للدماء، وقد أوقع في الأمويين وبقاياهم مقتلة عظيمة، وكان جبّارًا مرهوب الجانب، ومع ذلك انظر –رعاك الله– إلى موقف عالمنا الأوزاعي بين يديه، وثبات جنانه، وحسن جوابه..!

كان يريد منه الإفتاء بحلّ الدماء التي سفكها، بل وباعتبار ذلك جهادًا ورباطًا، وحلّ الأموال التي حازها من أسلافه أيضًا، لكنّه لما رأى من منه ثباتًا أراد أن يحوزه إلى حاشيته فعرض عليه القضاء، فما زاده إلا ثباتًا وبعدًا عنه.

فأين من هؤلاء اليوم علماء اصطفّوا في حاشية أولياء الأمور، يسبقون بفتاويهم الباطلة ضلال الأمراء وما أوتوه من الظلم والطغيان، حتى جعلوا لهم الحلال حرامًا والحرام حلالًا، كل هذا من أجل حيازة دنيا باطلة؟!

فأين هذا من ثبات سلفنا الصالح وهم يقولون الحق ينتظر أحدهم –كما قال الأوزاعي رحمه الله– أن يسقط رأسه بين يديه، فما يزيده هذا إلا ثباتًا؟!

فسلام الله على من سار على دربهم من علماءنا الثابتين في سجون الحكام الظالمين..

٢٦– بين عبد الملك بن مروان وسعيد بن المسيب –رحمهما الله تعالى–.

كتب والي المدينة إلى عبد الملك بن مروان أن أهل المدينة أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب، فكتب أن اعرضه على السيف، فإن مضى وإلا فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة، فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله على سعيد بن المسيب، فقالوا: إنا قد جئناك في

أمر قد قدم فيك كتاب من عبد الملك بن مروان إن لم تبايع ضُربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالًا ثلاثًا فأعطنا إحداهن، فإن الوالي قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا ولا نعم.

قال: " فيقول الناس: بايع سعيد بن المسيب؟! ما أنا بفاعل"، قال: وكان إذا قال: لا، يطيقوا عليه أن يقول: نعم، قال: "مضت واحدة وبقيت اثنتان"، قالوا: فتجلس في بيتك فلا تخرج إلى الصلاة أيامًا، فإنه يقبل منك إذا طُلبت في مجلسك فلم يجدك، قال: "وأنا أسمع الأذان فوق أذني حي على الصلاة حي على الفلاح؟!، ما أنا بفاعل".

قالوا: مضت اثنتان وبقيت واحدة، قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك، قال: "فرقًا لمخلوق؟! ما أنا بمتقدّم لذلك شبرًا ولا متأخر شبرًا"، فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه، فلما صلَّى الوالي بعث إليه فأُتي به، فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك.

قال: "نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن بيعتين"؛ يعني بيعة للوليد وأخرى لسليمان، فلما رآه لا يجيب أخرج إلى السدة فمدت عنقه وسلت عليه السيوف فلما رآه قد مضى أمر به، فجرد فإذا عليه تبان شعر، فقال: "لو علمت أني لا أقتل ما اشتهرت بهذا التبان"، فضربه به خمسين سوطًا، ثم طاف به أسواق المدينة، فلما ردَّه والناس منصرفون من صلاة العصر، قال: "إن هذه الوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة". يعني قيامه في الصف الأول كل صلاة.

٢٧– بين عبد الملك بن مروان وعطاء بن أبي رباح –رحمهما الله تعالى–.

دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سرير، وحوله الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به قام إليه، فسلَّم عليه وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له: يا أبا محمد حاجتك؟ فقال: "يا أمير المؤمنين، اتقِ الله في حرم الله وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتقِ الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصن للمسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك".

فقال له: أفعل. ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك، فقال: يا أبا محمد إنما سألت حوائج غيرك وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال: "مالي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج". فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السّؤدد.

٢٨- بين عمر بن هشام وسالم بن عبد الله -رحمهما الله تعالى-.

دخل هشام بن عبد الملك في حجه الكعبة؛ فإذا هو بسالم بن عبد الله فقال له: يا سالم سلني حاجة، فقال: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره؛ فقال له: الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: من حوائج الدنيا فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها؛ فكيف أسألها من لا يملكها!.

٢٩- بين غازان وابن تيمية -رحمه الله-.

ذكرت كتب التاريخ أن غازان ملك التتار زحف بجيشه نحو مدينة حلب شمال بلاد الشام فاعترضه الناصر قلاوون بجيشه في وادي سلمية في ربيع الأول من سنة ٦٩٩هـ، فانهزم قلاوون وفرّ قواده، ودبّ الهلع في مدينة دمشق التي هجرها أعيانها ولحقوا بقلاوون وأمرائه، حتى لم يبقَ فيها حاكم ولا أمير.

فصمد فيها شيخ الإسلام ابن تيمية واجتمع إليه من بقي من أعيان البلد وعامة الناس، واتفق معهم أن يخرج على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان، وقد روى ابن كثير -رحمه الله- وقائع ذلك اللقاء كما سمعه من أحد أعضاء ذلك الوفد وهو الشيخ أبو عبد الله البالسيّ الذي حدّث فقال: إنّ شيخ الإسلام ابن تيمية قال لغازان:

"أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضٍ وإمام وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هلاكو كَانَا كَافِرَيْنِ وَمَا غَزَوَا بِلَادَ الْإِسْلَامِ، بَلْ عاهدوا قومنا، وَأَنْتَ عَاهَدْتَ فَغَدَرْتَ وَقُلْتَ فَمَا وَفَّيْتَ".

ثمّ قرّب غازان للوفد طعامًا فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَّةَ، فَقِيلَ لَهُ أَلَا تَأْكُلُ؟ فَقَالَ: "كَيْفَ آكُلُ مِنْ طَعَامِكُمْ وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَبْتُمْ مِنْ أَغْنَامِ النَّاسِ وَطَبَخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ؟!"، وغازان مصغٍ لما يقول، شاخص إليه لا يعرض عنه.

وإن غازان من شدة ما أوقع في قلبه من الهيبة والمحبة، سأل من هذا الشيخ؟ إني لم أرَ مثله ولا أثبت قلبًا منه ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحد منه، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، ثم طلب غازان منه الدعاء فقام الشيخ يدعو فقال: "اللّهمّ إن كان هذا عبدك مَحْمُودٌ إِنَّمَا يُقَاتِلُ لِتَكُونَ كَلِمَتُكَ هِيَ الْعُلْيَا وَلِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لَكَ فَانْصُرْهُ وَأَيِّدْهُ وَمَلِّكْهُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً وَطَلَبًا لِلدُّنْيَا وَلِتَكُونَ كَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وَزَلْزِلْهُ وَدَمِّرْهُ وَاقْطَعْ دَابِرَهُ"، وَقَازَانُ يُؤَمِّنُ على دعائه، ويرفع يديه.

قال الباسليّ: "فجعلنا نجمع ثِيَابَنَا خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَلَوَّثَ بِدَمِهِ إِذَا أَمَرَ بِقَتْلِهِ". قَالَ فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ نَجْمُ الدِّينِ وَغَيْرُهُ: كِدْتَ أَنْ تُهْلِكَنَا وَتُهْلِكَ نَفْسَكَ، وَاللَّهِ لَا نَصْحَبُكَ مِنْ هُنَا، فَقَالَ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَصْحَبُكُمْ. فَانْطَلَقُوا عُصْبَةً وَتَأَخَّرَ هُوَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أصحابه، فتسامعت به الخواقين وَالْأُمَرَاءُ مِنْ أَصْحَابِ قَازَانَ فَأَتَوْهُ يَتَبَرَّكُونَ بِدُعَائِهِ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى دِمَشْقَ، وَاللَّهِ مَا وَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ إِلَّا فِي نَحْوِ ثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ فِي رِكَابِهِ، وَكُنْتُ أَنَا مِنْ جُمْلَةِ مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَصْحَبُوهُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّتَرِ فسلبوهم ثيابهم وما معهم.

أيها الأخوة المؤمنون؛ كان هذا هو منهج ابن تيمية وثبات ابن تيمية الذين ينسب نفسه إليه اليوم وإلى مذهبه وطريقته كثير ممن فضح الله حالهم وكشفهم على حقيقتهم، من دعاة أتباع السلف وعقائد السلف ومنهج السلف. هذا هو حال من اتّبع منهج السلف.

ليس هذا فحسب بل إن ابن تيمية كما تروي كتب التاريخ لما اقترب التتار من دمشق لم يكن من الخوالف، بل أرسل إلى أمير مصر يستنصره ويهدّده بأنه إن لم ينجد الشام ويحمِها بحثوا لها عن أمير يقوم بحالها، ثم خرج مع من ثبتهم من جند الشام وقد لبسوا لباس الحرب.

فلمّا كان فجر اليوم الذي جرت في المعركة تقدَّم بعد أن اصطف للقتال من أحد القادة فقال له: أوقفني موقف الموت. فأشار القائد إلى غبار قد انعقد من حيث أقبل التتار وقال: ذلك موقع الموت، فاتَّجه إليه يتبعه أخوه –رحمه الله– وانغمس فيهم، ولم يُرَ إلا والشمس تغيب عائدًا من المعركة، وقد حصر التتار في الوادي وفتح على المسلمين.

نعم أيّها الإخوة؛ هذا هو نهج من كان له في رسول الله أسوة حسنة، بالجهاد والأمر بالعروف والنهي عن المنكر، وبمثل هذا النهج يكون اتّباع السلف والانتساب لعقيدة السلف.

٣٠– بين ملوك الأيوبيين وعبدالله اليونيني –رحمه الله–.

روى الذهبي في (سير أعلام النبلاء) عن الشيخ عبد الله بن عثمان اليونيني الزاهد العابد من أهل الشام أنه كان صوّامًا قوّامًا كثير الغزو دائم الذكر كثير الهيبة، وذكر أن الملك العادل أتى والشيخ يتوضأ فجعل تحت سجّادته دنانير فردّها وقال: "يا أبا بكر كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق، وتبيع المرأة أوقية ويؤخذ منها قراطيس؟"، فأبطل العادل ذلك.

وذكر أن الملك المعظم جلس بين يديه وطلب الدعاء منه فقال له: "يا عيسى لا تكن نحسًا مثل أبيك، أظهر الزعل – أي العملة المغشوشة– وأفسد على الناس المعاملة".

وذكر سبط الجوزي أن الشيخ اليونيني كان شجاعًا لا يبالي بالرجال قلّوا أو كثروا، وكان رغم تعفّفه وزهده يقول لتلميذه: "فيّ وفيك نزلت: {إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}".

أيها الأخوة المؤمنون؛ لله درّ هذا الإمام المجاهد، لو رأى قرّاء زماننا الذين لم يعفّروا أقدامهم إلا بغبار سجاد السلاطين، لله درّه لو رأى أوداج القرّاء وقد انتفخت من سحت الظالم وجوائز الأمراء. لله درّه لو رأى وسمع خطباء الحرم المكي وأئمة مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يدعون للملوك والأمراء المبدّلين لشرع الله بالمجد والسلامة ودوام الحكم، ويدعون على من أراد بهم –من الصالحين– سوءًا أن يرد الله كيدهم في نحره!

لله دره لو رأى شيكات خدّام الحرمين ودنانيرهم ودولارات أسيادهم تندسُّ تحت سجاجيد القرّاء وفي جيوب عباءاتهم وخياشيم وجوههم..!

قال لملك الأيوبيين: "كيف ندعو لك والخمور فاشية"، الله الله يا إمام؛ ماذا بقي من الكفر والفسق والفجور والخمور لم يُفشِه أمراؤنا في قصورهم وبيوت كبرائهم حتى يتبعهم كثير من ضلّال العامّة..؟!

نعم كان ذلك صدعهم بالحق لأنّه –تبارك وتعالى– قال: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، لقد جاهد أولئك الأئمة فهانت في عيونهم مقادير الرجال وهيلمان الطغاة، ولكن هؤلاء الذين لم يشهدوا إلا غزوات الولائم ونزالات الخطب الرنانة وسياحات الترفيه؛ لم يكن لهم أن يصيروا إلّا كما هم، وكل إناءٍ بما فيها ينضح..

٣١– بين هارون الرشيد والفضيل بن عياض –رحمهما الله تعالى–.

قال الفضيل بن الربيع: "كنت بمنزلي ذات يوم وقد خلعت ثيابي وتهيأت للنوم، فإذا بقرع شديد على بابي، فقلت في قلق: من هذا؟ قال الطارق: أجب أمير المؤمنين. فخرجت مسرعًا أتعثَّر في خطوي، فإذا بالرشيد قائمًا على بابي وفي وجهه تجهّم حزين، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ لأتيتك. فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء أطار النوم من أجفاني وأزعج وجداني، شيء لا يذهب به إلا عالم تقيّ من زهادك، فانظر لي رجلًا أسأله".

ثم يقول ابن الربيع: "حتى جئت به إلى الفضيل بن عياض. فقال الرشيد: امضِ بنا إليه، فأتيناه، وإذا هو قائم يصلي في غرفته وهو يقرأ قوله تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}. فقال الرشيد: إن انتفعنا بشيء فبهذا. فقرعت الباب. فقال الفضيل: من هذا؟ قلت: أجِب أمير المؤمنين. فقال: ما لي ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله، أما عليك طاعته؟

فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفّ الرشيد كفي إليه. فقال: يا لها من كفّ ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى غدًا. قال ابن الربيع: فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي.

فقال الرشيد: خذ فيما جئناك له يرحمك الله. فقال الفضيل: وفيما جئت وقد حمّلت نفسك ذنوب الرعيّة التي سمتها هوانًا، وجميع من معك من بطانتك وولاتك تضاف ذنوبهم إليك يوم الحساب؟! فبِكَ بَغَوا وبك جاروا، وهم مع هذا أبغض الناس لك وأسرعهم فرارًا منك يوم الحساب، حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك سِقطًا من ذنب ما فعلوه، ولكان أشدهم حبًا لك أشدهم هربًا منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لما وليّ الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتُليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ. فعدّ الخلافة بلاءً وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ابنًا، فوقّر أباك وأكرم أخاك وتحنَّن على ولدك.

وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله فأحبّ للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إن شئت. واني أقول لك يا هارون: إني أخاف عليك أشدّ الخوف يومًا تزل فيه الأقدام. فبكى هارون.

قال ابن الربيع: فقلت ارفق بأمير المؤمنين.. فقال: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا..

ثم قال: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله –عز وجل– عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه فافعل، وإياك أن تصبح أو تمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيّتك، فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (من أصبح لهم غاشًا لم يرح رائحة الجنة).

فبكى الرشيد. ثم قال: هل عليك دين؟ فقال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم أُلهم حجَّتي. قال الرشيد: أنما أعني دين العباد. فقال: إن ربي لم يأمرني بهذا وقد قال –عز وجل–: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}.

فقال الرشيد: هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك. قال: سبحان الله. أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا!.

قال ابن الربيع: فخرجنا من عنده. فقال هارون الرشيد: إذا دللتني على رجل فدلَّني على مثل هذا، هذا سيّد المسلمين اليوم".

٣٢– بين هشام بن عبد الملك وطاووس اليماني –رحمهما الله تعالى–.

حكي أن هشام بن عبد الملك قدم حاجًا إلى بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال: ائتوني برجل من الصحابة. فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا، قال: فمن التابعين، فأُتي بطاووس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم بإمرة المؤمنين ولم يكنّه، وجلس إلى جانبه بغير إذنه، وقال: كيف أنت يا هشام؟

فغضب من ذلك غضبًا شديدًا حتى همَّ بقتله، فقيل: يا أمير المؤمنين أنت في حرم الله وحرم رسوله لا يمكن ذلك، فقال له: يا طاووس، ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟

فاشتدَّ غضبه وغيظه، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلّم عليَّ بإمرة المؤمنين، ولم تكنّني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: يا هشام كيف أنت؟

قال: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ، وأما ما قلت: لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك فخفت أن أكون كاذبًا، وأما ما قلت لم تكنّني فإن الله سمى أنبياءه قال: يا داود يا يحيى يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}، وأما قولك: جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام.

فقال له: عِظني. قال: إني سمعت أمير المؤمنين يقول: إن في جهنم حيَّات كالقلال وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وخرج..

الفهرس